لغة الخطاب السياسي في الشعر العربي : نظرة عجلى

صالح السحيباني

أستاذ علم اللغة التطبيقي المساعد في قسم تأهيل معلمي اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض – خبير تدريب معلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها في مشروع العربية للجميع.

Abstract

The article discusses al-khiṭāb al-siyāsī *(the politics of language) of Arabic poems that came from pre-Islamic period till nowadays, with its main aim is to discover the characteristics and the nature of* al-khiṭāb al-siyāsī. *The discussion of the issues is based on an assumption that* al-khiṭāb al-siyāsī *has a significant influence at convincing people and directing their behaviors. Talking about the very concept of* al-khiṭāb al-siyāsī *and its early development in Arabic society, the writer draws his attention to the root of* al-khiṭāb al-siyāsī *in the pre-Islamic period. Furthermore, he briefly compares the characteristics of* al-khiṭāb al-siyāsī *in Arabic pre-Islamic poems, those of Islamic period, and the modern ones. The article shows, as well, the golden age of* al-khiṭāb al-siyāsī *during Umayyad and Abbasid periods. The discussion of the characteristics* al-khiṭāb al-siyāsī *of modern poets closes entire article.*

Abstrak

Artikel ini membahas bahasa al-khiṭāb al-siyāsī *(ungkapan politik) dalam syair bahasa arab sejak masa jahiliyah hingga masa modern, dengan maksud untuk mengungkap karakter dan sifat yang menonjol dan lekat*

serta yang membentuk al-khiṭāb al-siyāsī. *Pembahasan persoalan tersebut didasarkan pada asumsi bahwa* al-khiṭāb al-siyāsī *mempunyai pengaruh yang sangat besar dalam meyakinkan orang dan membentuk perilaku. Dimulai dengan pembahasan tentang hakekat* al-khiṭāb al-siyāsī *dan awal kemunculannya dikalangan masyarakat Arab, tulisan ini kemudian membahas dengan sangat fokus dan langsung akar-akar* al-khiṭāb al-siyāsī *pada masa jahiliyah. Disamping itu, penulis juga berusaha mengadakan komparasi sekilas antara ciri-ciri* al-khiṭāb al-siyāsī *pada syair arab masa Jahiliyah, awal Islam, dan masa kini. Artikel ini juga membicarakan sekilas kejayaan* al-khiṭāb al-siyāsī *pada masa Umawiyah dan masa Abbasiyah, yang kemudian ditutup dengan pembicaraan tentang karakter* al-khiṭāb al-siyāsī *di kalangan penyair modern.*

Keywords: *al-khiṭāb al-siyāsī*, Arabic poem, the role of language.

أ. المقدمة

تعد اللغة من أهم الخصائص المميزة للإنسان؛ وهي كذلك من أصعب الظواهر البشرية وصفًا، فضلاً عن ذلك الدور الذي تلعبه اللغة في تحقيق التواصل البشري، فالتواصل بين البشر قومه الأول اللغة، وليس أدل على ذلك الدور المهم الذي تلعبه من تخللها في جميع مناحي الحياة؛ ومن هذا المنطلق الاجتماعي والتواصلي للغة يمكن القول إنها المفتاح لفهم المجتمع ذاته.

ولما كانت اللغة تمثل نقطة الالتقاء بين علم اللغة وبين مختلف فروع المعارف الأخرى؛ فقد أدى هذا التعاون المتبادل بينهما إلى استعانة الدراسات اللغوية بعدد من تلك العلوم، رغبة في الكشف عن أسرار النظام اللغوي؛ وعلى الجانب الآخر أخذت اللغة في إفادة العلوم الأخرى باعتبارها وعاء لهذه العلوم؛ فنشأت فروع معرفية حديثة عن نقطة الالتقاء بين هذه العلوم واللغة، وفاء لحاجة هذه العلوم من اللغة، ولذلك فقد حظيت هذه اللغة - وما تزال - بنصيب وافر من الاهتمام والدراسة منذ عشرات القرون. وظهرت

مدارس لغوية عديدة عبر تلك الفترات الزمنية المتعاقبة، وكان من أحدثها مدرسة تحليل الخطاب التي تتعدى في تحليلاتها اللغوية النظم التي اتبعتها المدارس الأخرى التي كان معظم اهتمامها ينصبّ على الجملة بوصفها الوحدة اللغوية الكبرى.

وقد جرت عادة اللغويين على تصنيف الدراسات اللغوية إلى قسمين، هما: علم اللغة النظري، وعلم اللغة التطبيقي، والذي كان أحد فروع درسه علم اللغة الاجتماعي الذي تفرع عنه موضوع هذا البحث وهو علم اللغة السياسي.

وعلم اللغة السياسي هو أحد الفروع الحديثة المنبثقة عن علم اللغة الاجتماعي والتي نالت اهتمامًا ملحوظًا في الآونة الأخيرة إثر ازدياد نفوذ اللغة كسلاح سياسي في توجيه الحركات العالمية وكسب التأييد تجاهها، وهذا العلم يهتم بدراسة جوانب الخطاب السياسي، والتعرف على خصائصه اللغوية، وسماته، وملامحه، وقاموسه، ووسائل تأثيره في المستمع، وكيفية صناعة شعارات السياسيين عبر اللغة تعبيرًا عن توجهاتهم.

ويرجع البعض هذه العلاقة الوطيدة بين اللغة والسياسة إلى دور اللغة المهم في إعادة تشكيل الأحداث والأزمات الاجتماعية.[١]

ومهما يكن من أمر، فقد أفاض قلة من المتخصصين المحدثين في بيان جوانب الدرس اللغوي السياسي وتحديد ملامحه، ومن هؤلاء المطيري الذي عرّف الخطاب السياسي بقوله : "هو تلك الممارسة اللغوية التي تلعب دورًا كبيرًا في خلق الواقع السياسي فهو خطاب لا يكتفي ببث رسالة فقط، وإنما يشكل الواقع؛ لأنه يصدر ممن يملك تغيير الواقع، فهو يراعي المقامات الاجتماعية والتاريخية. فالخطاب السياسي ليس منبتًّا عن محيطه، كما أنه يراعي دور اللغة في التأثير في قناعات الناس وسلوكهم، وخلق الانطباعات عن المتكلم".[٢]

---

[١] فكري عبد المطلب، *الانفجارات غيّرت وظيفة بوش*، انظر موقع (www.albayan.co.aa).

[٢] منصور المطيري، *مصطلحات الخطاب العربي تجاه الإسلام*، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٢٠٠٢م، ص: ٣٤٧.

فالخطاب السياسي – إذن – يلجأ إلى استثارة الرموز اللغوية في عقول المخاطبين من أفراد الشعب؛ كي يتمكن من تحقيق هدفه بالتأثير على نظرتهم لهذه القضية أو تلك.[٣]

ومن هنا، فقد يظن بعض الباحثين بأن علم اللغة السياسي علم حديث النشأة، وأنه نوع من الدراسات الحديثة، وهذا - في نظري - مجانب للصواب، ذلك أن الخطاب السياسي قديم قدم المدنية البشرية، والتجمع البشري، وبداية العلاقات الدولية بين المجتمعات. وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة الشهيرة التي وجهها ابن تيمية إلى ملك قبرص والتي سميت بالرسالة القبرصية، والتي كشفت عن الدور الكبير للفقهاء في الحوار السياسي، وقبل ذلك وبعده لاننسى خطابات الرسول - ﷺ - إلى ملوك الأمم الأخرى، وخطابات الحوار بين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ومعاوية بن أبي سفيان، وكذلك بين الحسين بن علي – رضي الله عنهما – ومعاوية، وغيرهم كثير من الذين تبادلوا الشؤون السياسية من خلال الحوار، غير أن دراسات هذا الخطاب هي التي تحمل – في ظني – عنصر الحداثة والجدة، ذلك أن تخصيص علم لدراسة هذا الخطاب ومناهجه وسماته لم يكن على مستوى وجود هذا الخطاب منذ القدم، فالظاهرة تبدأ قبل دراستها وبهذا كان الجانب التطبيقي متقدمًا بمراحل كثيرة عن الجانب التنظيري لهذا الفرع، وبخاصة إذا ما علمنا أن محاولات فصل هذا الفرع من الدرس اللغوي ومن علم اللغة الاجتماعي كان مع بدايات القرن العشرين الميلادي.

أما عن دراسة هذا المجال في بدايات الدولة الإسلامية ومرحلة التصنيف في الدرس اللغوي العربي الأولى، فكانت تخرج بعض الإشارات المهمة من كتب الفقهاء والمحدثين والذين تناولوا عددًا من هذه الممارسات السياسية في مصنفاتهم، وفي هذا يقول داود : "وتجلّت في كتب الفقهاء والمحدثين في هذه المرحلة ألوان الممارسات

[٣] فكري عبد المطلب، *مرجع سابق*.

السياسية، أهمها : الخلافة، والإمارة، والبيعة، وطاعة الإمام، فأعوان الأمراء، وبعض أحكام نظم الإدارة".[٤]

ويعني ذلك أننا لم نجد - في ضوء قراءتنا المحدودة - كتابًا ينفرد بدراسة اللغة السياسية، وتحليل الخطاب السياسي في المراحل الأولى من تاريخ العربية في التصنيف يتناول، بحيث ذلك الدرس اللغوي وحده وبصفة مستقلة، وإنما نبع ذلك من داخل مصنفات أخرى، ومن أمثلة هذه المصنفات:

١) كتاب الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان، وتناول فيه مسائل من الشورى، والعدل، والتعامل مع الرعية.
٢) كتاب السير الكبير لحمد بن الحسن الشيباني، تناول فيه نظم الحرب، والعلاقات الدولية، وموقع الأجانب من الدولة.
٣) كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية، وهو من أبرز مصنفات الفكر السياسي.

ومن خلال ما سبق يتأكد للبحث أن الدراسات التي دارت حول الفكر السياسي متعددة، أما عن انفرادها بالدرس اللغوي لهذا الخطاب السياسي فإن هذا المجال يعد من أحدث الدراسات اللغوية التي قامت في العصر الحديث كما أحسب.

وعلى كل حال، وبما أن الشعر العربي يُعد من أهم النصوص اللغوية لدى العرب - بعد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة - فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستودع وقائعها، وهو السجل التاريخي للحياة العربية على اختلاف شؤونها ومستوياتها عبر عصورها المختلفة - فإن من يمعن النظر في هذا الحقل عبر عصوره المختلفة لن يختلجه شعور الاستغراب إذا ما وجد أن ذلك الشعر يتعاطى السياسة، بل إن السياسي يحتل مكانة بارزة في الشعر العربي.

---

[٤] محمد داود، *اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر*، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢م، ص: ٢١.

ب. جذور الخطاب السياسي في العصر الجاهلي

عرف المجتمع العربي الحياة السياسية تبعًا للظروف التي مر بها وخاصة في العصر الجاهلي، ذلك العصر الذي اتسم بالغطرسة والقوة، وأصبحت السيطرة السياسية نتاجًا لظروف المجتمع آنذاك، حيث ساد فيه قانون الغابة؛ البقاء للأقوى، وعرف شيئًا من الإرهاب، ولكن لم يكن – بطبيعة الحال – بالشكل الذي هو عليه الآن، ولم يكن بهذه الصور، فالصور لمثل هذه الأمور إنما تحددها ظروف البيئة الاجتماعية.

كذلك عرف المجتمع في تلك الفترة صورة مصغرة لنظم الحكم من خلال القبيلة والتي كانت تمثل كيانًا ككيان الدولة في المدينة الحديثة، وهذا ما عبر عنه أمين بقوله : "تُعد القبيلة المرحلة الأولى في تطور النظم الاجتماعية والسياسية، ولقد كان النظام القبلي هو السائد في المجتمع العربي في فترة الجاهلية قبل الإسلام، وإن كان هناك وجود للدول المستقرة في بعض نواحي شبه الجزيرة العربية كاليمن، والحيرة، وغسان".[٥] أي كان هناك سيادة خاصة لكل قبيلة يحكمها رئيس وهو شيخ هذه القبيلة ومن خلاله تنظم العلاقات داخل القبيلة وخارجها وتحدد سياستها. وقد عرف تاريخنا العربي نماذج شهيرة؛ كالمهلهل، وعمرو بن كلثوم. ومعنى ذلك أن مفهوم الانتماء قد تحقق على مستوى القبيلة، مما يعني اندماج الفرد في القبيلة والتزامه الدقيق بمصالحها، وفخره المستمر بأمجادها وتحفزّه الدائم لدرأ العدوان عنها، والدفاع عن وجودها، وقد احتل الشعراء مكانًا متميزًا داخل هذا النظام المذكور آنفًا.

فالشاعر كان - يُعد بالمفهوم الحديث - المتحدث السياسي أو الإعلامي باسم قبيلته، ذلك أنه وعبر شعره تطلق الشعارات والهتافات، وتحدّد الجوانب والعلاقات السياسية لقبيلته، وتُسجّل المفاخر، والخطابات السياسية من خلاله، وإلى ذلك يشير الجندي بقوله : "وكان الشعراء في قبائلهم لسان حالهم، والمذيعين لأخبارهم، والمسجلين لأفضالهم، وأمجادهم، وكان الفخر عند الجاهليين يقوم عادة على التغني بالبطولة

---

[٥] جودة آمين، *عن التاريخ الأدبي في العصر الجاهلي*، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٨م، ط١، ص: ٣٣.

والشهامة وكثرة الحروب وشن الغارات، والنصر، والغلبة، والقوة، والبأس، وإثارة الفزع في نفوس الأعداء".[٦] ولم يقتصر هذا الدور السياسي على القبائل فقط فقد عرفته بشكل أدق وأوسع وأكثر نظامًا تلك الممالك الموجودة في بلاد العرب خلال تلك الفترة، حيث عرفت ممالك الحيرة، والغساسنة، والمناذرة الخطاب السياسي وقام عليه - أيضًا - الشعراء آنذاك، فقد كان لكل ملك من أولئك بطانة من الشعراء يعلنون سياسته، ويتحدثون بلسانه وأهدافه، فكان على رأس هؤلاء من الشعراء النابغة الذبياني الذي عُرف بقربه الشديد من النعمان بن المنذر (ملك الحيرة)، حيث لزمه، وأخذ يمدحه، ويتغنى بمناقبه. ويذكر ضيف[٧] أن بلاط النعمان كان يموج بالشعراء، من أمثال: لبيد بن ربيعة العامري، والمثقب العبدي وغيرهما كثير..، ولكن النعمان لم يكرم أحدًا مثل إكرامه للنابغة، وقد صوّر النابغة كل ذلك في معلقته، إذ يقول :

الواهب المائة المعكاء زينها　　سعدان توضح في أبارها اللّبد[٨]
والراكضات ذيول الريط فانقها　　برد الهواجر كالغزلان بالجرد

لقد أشار إلى هذا الدور السياسي للشعراء شتا بقوله : "وكثير من الشعراء كانوا مستخدمين أو مدفوعين من قبل الحكام أو الشخصيات السياسية الأخرى وكان واجبهم أن يزينوا صورة سيدهم ويشوهوا صورة خصمه، فكان للشاعر دور مهم في ميدان الدعاية أو فيما نسميه اليوم بالعلاقات العامة واستطاع الشعر أن يكون سلاحًا مهمًا في الحرب السياسية".[٩]

---

[٦] علي الجندي، *في تاريخ الأدب الجاهلي*، القاهرة: دار غريب، ١٩٩٨م، ص:٦٦.

[٧] شوقي ضيف، *العصر الجاهلي*، القاهرة: دار المعارف، ط١١، ص: ٢٦٩.

[٨] المعكاء: الغلاظ القوية، ويريد الإبل. توضح: موضع. السعدان: مراع. لبد الشعر: ما تلبد منه.

[٩] إبراهيم شتا (مترجم)، *لغة السياسة في الإسلام لبرنارلويس*، دار قرطبة، ٢٠٠١م، ص: ٢٤.

وقد تعددت الموضوعات السياسية التي عبّر الشعر عنها بتعدد الوشائج واتساعها بين السياسة وبقية أشكال النشاط الاجتماعي، فكان صوتًا للحرب، كما وعُد صوتًا للسلام – أيضًا – كما أنه مثل شكلاً للثورة والتمرد، وعُرف هذا الشكل لدى الشعراء الصعاليك المعروفين بالتمرد على المجتمع والانتقام لظروفهم السيئة وأحوالهم المتدهورة. يقول داود : "كان للشعر العربي دور كبير في الحروب بل إن مؤرخي الأدب يربطون بين نشأة الشعر العربي والحروب الكبيرة، كحرب السبوس، وحرب داحس والغبراء، وقد علا صوت المهلهل مطالبًا بالثأر لأخيه رافضًا عرض بني بكر دفع الدية بقوله :

يا لبكر أنشدوا لي كليبًا يا لبكر أين أين الفرار؟![١٠]

وعرف الشعر لغة التهديد والوعيد للأعداء ظاهرًا، حيث يبرز ذلك بشكل جلي في معلقة عمرو بن كلثوم حين ندّد بسياسة عمرو بن هند ومحاباته للبكريين حتى انتهى الأمر بقطع رأس عمرو بن هند، وفي هذا يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضًا ونصدرهن حمرًا قد روينا

كما عرف الدهاء السياسي في أعلى صوره في تلك الفترة في معلقة الحارث بن حلزة والتي عرّض فيها بالتغلبيين وكان فيها من الحكمة والدهاء السياسي ما أثار عمرو بن هند كي ينحاز للبكريين، وفي ذلك يقول الزوزني: "وفي معلقة الحارث من الدهاء في التعريض بالتغلبيين وسرد الحوادث التاريخية ومن الحكمة والدهاء والحنكة ما يجعلها مثالاً للشعر السياسي في العصر الجاهلي".[١١]

وكذلك عرف الشعر الجاهلي في جانب السياسي وجهة أخرى ألا وهي وجهة السلام، وتمثل معلقة زهير ابن أبي سلمى نموذجًا فريدًا لهذا الهدف السياسي، حين مدح الساعين إلى السلام. وقد أشاد الجندي بمعلقة زهير ودعوتها للسلام، بقوله : "ونظم زهير معلقة في مدح الساعيين لحقنهما الدماء، وتحملهما الديات؛ فاستحقا الثناء يقول :

---

[١٠] محمد داود، *العربية*، القاهرة: دار غريب للطباعة، ٢٠٠٣م، ص: ٦.

[١١] الزوزني، *شرح المعلقات السبع*، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ٢٠٠٠م، ص: ٢١٥.

تداركتما عبًا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعًا بمال ومعروف من القول نسلم[١٢]

وهكذا مثّل الشعر الجاهلي شكلاً من أشكال الخطاب السياسي مع الأخذ بعين الاعتبار تطور المصطلحات والمفاهيم السياسية، وكذلك الظروف الاجتماعية إلا أن ذلك الشعر عرف – في ظني – أشكالاً من التمرد السياسي بمعاني العصر الحديث، ولكن بمسمى آخر وهو تحت اسم الصعاليك (وهم مجموعة من الفقراء المتمردين أو الخارجين على قوانين المجتمع والقبائل، وكان من أشهر هؤلاء الشعراء تأبط شرًا، والشنفري، وعروة الصعاليك). يذكر داود أن كلمة صعلوك : "صارت علمًا على هؤلاء المتمردين على الأوضاع القبلية؛ الخارجين على قيم المجتمع، وكان الشعر صوتهم المعبر عن قيمهم وثورتهم على قيم المجتمع وتقاليده، ومن هؤلاء الشنفري الذي يعلن ثورته على أهله وقبيلته في لاميته الشهيرة"،[١٣] حيث يقول في أول بيت فيها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل[١٤]

وبهذا مثّل الشعر الجاهلي الجانب السياسي بكل أهدافه مع ملاحظة تطور المصطلح السياسي فيما بعد تغير المفاهيم السياسية التي تتشكل تبعًا لتطور المجتمعات أو انحطاطها.

جـ. تطور الخطاب السياسي وأهدافه في شعر صدر الإسلام

استمر للشعر دوره السياسي بعد ظهور الإسلام ولكن – وبطبيعة الحال – فقد اختلفت الأهداف السياسية، حيث إنه وبعد هيمنة الغطرسة والظلم والعبودية في العصر الجاهلي جاء الإسلام بسماحته؛ لينهي تلك الفوضى ويستأصل جذورها؛ ليضع دعائم

---

[١٢] علي الجندي، *المرجع السابق*، ص:٣١٦.

[١٣] محمد داود، *مرجع سابق*، ص: ٦٣.

[١٤] محمود أبو ناجي، *شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام*، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٤م، ط١، ص: ١٧٨.

دولة متكاملة تستحق أن تسمى المدينة الفاضلة مع اختلاف نبعها عن مدينة أفلاطون وعصمتها من الأخطاء. فأخذ هذا الشعر يعبر في البداية عن مناصرة الدولة الإسلامية وأهدافها، وتدعيم أركانها، والدعوة إليها، وإلى اتساع رقعتها من خلال الإقناع الشعري، كما دعا إلى مناجزة أعداء الدولة، وتفنيد أكاذيبهم فيما عرف في عصرنا الحديث بالدعاية لنظم الحكم، ثم أعقب استقرار الدولة بيان أهداف الدولة الجديدة من إعطاء الحريات للبلاد المفتوحة والقضاء على العبودية التي كانت لغير الله تعالى، وكذلك الدعوة للسلام[١٥]. وعرف الشعر العربي في تلك الفترة أعلامًا وفرسانًا تخصصوا في هذا المجال، وعلى رأسهم حسان بن ثابت شاعر الرسول- ﷺ -، والنابغة الجعدي، وكعب بن زهير. ويذهب داود إلى القول بأن الشعر في تلك الفترة كان : "صوت الأمة ونصير الدعوة الإسلامية وكان حسان بن ثابت شاعر النبي - ﷺ - يمجد الإسلام، ويعدد مآثر النبي الكريم - ﷺ - والمؤمنين بدعوته ويرد على أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين".[١٦]

ولما كان النص القرآني هو الأساس الأول للتشريع، فقد كثر الاقتباس من معانيه البديعة بما يكشف عن سياسة الدولة الجديدة والدين الخاتم، ومن هنا ظهرت معانيه في الشعر العربي في تلك الفترة، فنلمح ألفاظًا، مثل: الحرية والشورى والنصرة وغيرها من المعاني التي تعكس سياسات تلك الفترة، وهي كلها معاني نلمس بجلاء تطورها في العصر الحديث، حيث نجد الديمقراطية في مقابلة الشورى، والاتباع نجده في عصرنا الحديث تحت معان، مثل: الانحياز أو التبعية أو الحماية ووجدنا والوصاية، في عصرنا الحديث الحلف في التعبير عن التحالفات الدولية التي كنا نجدها نجد في صدر الإسلام النصرة، كذلك تميز الشعر في تلك الفترة بالاقتباس من القرآن الكريم والسير. ومن النماذج الشعرية التي نلمح فيها عددًا من هذه المعاني ما قاله كعب بن زهير :

وفينا رسول الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لأتطلع

---

[١٥] محمد خفاجي، *الحياة الأدبية في صدر الإسلام*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠ م، ط٢، ص: ١٦٢.

[١٦] *المرجع السابق نفسه*، ص: ٦٤.

نشاوره فيما نريد وقصرنا إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع[١٧]

وهكذا كانت لغة الخطاب الشعري معبرة عن طبيعة الدين الجديد ومبادئه الشاملة لكافة شؤون الحياة، ومنها: الحياة السياسية وإن غابت مصطلحات المعارضة في تلك الفترة، وذلك راجع لوجود الرسول - ﷺ - وهو مبلغ الرسالة عن ربه، ومن هنا تميزت رسالته الخالدة، بالصدق وكانت الشورى في حدود المصلحة التي أقرها الدين. كذلك عرفت لغة الخطاب السياسي في تلك الفترة ما يسمى بالمعاهدات (وهي التي تُقر حقوق غير المسلم في الدولة الإسلامية) ومع الفارق في دلالة التعبير فإننا نجد في العصر - الحديث بدلاً من المعاهدات التي تقرُّ هذه الحقوق - المواثيق والامتيازات، والأجنبي في العصر الحديث كان يقابل الذمي في صدر الإسلام. وبتطور الحياة السياسية واختلاف الظروف بعد عصر الخلفاء الراشدين ظهرت على الساحة السياسية مصطلحات جديدة كشفت النقاب عن هذا التطور حيث حفلت لغة الشعر العربي – بعد ذلك - بالكثير من هذه المصطلحات وهو ما سوف نمر عليها سريعًا في الأسطر الآتية.

د. لغة الشعر السياسي في عهد بني أمية

عُرفت المنازعات في تلك الفترة بما يصطلح عنه بالتحكيم فكانت المفاوضات السياسية في فترة بني أمية مع الأطراف السياسية المختلفة تسمى بالتحكيم وهو ما حدث في نهاية عصر الراشدين بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – ونتيجة لمثل هذه الاختلافات السياسية بدأت في الظهور ما عُرف الآن بالأحزاب السياسية، وقد عُرف في تلك الفترة بهذا الاسم، وظهرت المعارضات السياسية في جانب من شعر النقائض، إضافة إلى الشعر السياسي، وتسمت كل جماعة سياسية بما يقترب من فكرها السياسي فرأينا مصطلح الشيعة يكشف عن أتباع الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه - وهم الذين تشيعوا له، والخوارج تعبيرًا عن عليه ورفضوا

[١٧] الأبيات موجودة في *السيرة النبوية* لابن هشام، بيروت: دار الجيل للنشر، ١٩٩١م، ط١.

التحكيم، كذلك كان لتغيير نظام الحكم من الاختيار إلى الوارثة أثره الذين خرجوا الواضح في الشعر العربي.

ومن الشعراء الذين كشفوا عن طبيعة الحياة السياسية من جانب توريث الحكم، أو ما عُرف في هذا العصر بولاية العهد وهو المصطلح نفسه الموجود حاليًا - الشاعر عبد الله بن هشام السلولي بقوله :

إذا ما مات كسرى قام كسرى نعُد ثلاثة متنا سقينا[١٨]

وهنا يظهر مدى التأثر بالفرس واختيار التلميح في لغة الخطاب السياسي؛ ليكشف عن نموذج من توريث السلطة. وعن الشيعة يقول فتوح : "لقد أفضت قضية الخلافة إلى قيام وجهات نظر سياسية مختلفة حول شكل الحكومة الإسلامية كيف تكون؟ وفي أي البيوت ينبغي أن توجد؟ وما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الأحزاب السياسية، كل يحاول تأكيد موقفه بشيء من الحجج العقلية".[١٩]

ونتيجة لهذا ظهرت مجموعة من المصطلحات السياسية التي تعبر عن وجهة نظر كل جماعة؛ فظهر لدى الشيعة مصطلحات التشيع والإمامة والأئمة وهي كلها تشير إلى الحاكم وأحقيته في القيادة، كذلك كثرت أساليب الندبة والتفجع والحسرة والنواح في شعر الشيعة، ليكشف عن النكبات التي تعرض لها آل البيت ومن شايعهم، كما نلمح في لغة شعرهم استغلالهم للأساليب الإنشائية في مقارعة الخصوم لتفنيد أقاويلهم، ومن ذلك قول كثير عزة في بعض أبيات :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء[٢٠]

علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء[٢١]

---

[١٨] البيت موجود في *كتاب الكامل* لابن الأثير.

[١٩] محمد فتوح، *الأدب الأموي*، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٩م، ص: ٨٢.

[٢٠] عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي* (ج١)، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م، ص: ٦٢٠.

[٢١] *المرجع السابق نفسه*، ص: ٧٠١.

ومن الأبيات التي تكشف عن استخدام الأساليب الإنشائية قول الكميت بن زيد في قصيدته الهاشمية التي تبلغ مائة وأربعين بيتًا :

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارًا على وتحسب

وقوله في تفنيد حجج الخصوم :

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا وما ورثتهم ذاك أمٌّ ولا أب

يرون لهم حقًا على الناس واجبًا سفاهًا وحق الهاشميين أوجب

ونفس الأمر وعلى الجهة الأخرى حرص الأمويون على تسخير الشعر وتوجيهم لأهدافهم السياسية واستغلاله في الدعاية لهم ولنظامهم القائم ومواجهة المعارضين لهم، وقد ظهرت صفات في الشعر السياسي لأنصارهم تجعله يقترب للمديح عنه إلى الشعر السياسي، وفي الوقت نفسه تكشف عن سمة في ذلك الشعر وهي الغاية قبل الوسيلة، حول ذلك يشير فتوح : "إلى حارثة بن بدر الذي يقول في زياد :

ألا من مبلغ عني زيادًا فنعم أخو الخليفة والأمير

فأنت إمام معدلة وقصد وحزم حين تحضرك الأمور

أخوك خليفة الله بن حرب وأنت وزيره نعم الوزير

فكل هذه الصفات تقترب بمثل هذا المديح من طبيعة الشعر السياسي الذي يجعل الغاية قبل الوسيلة، ويتذرع في تحسين صورة الممدوح بشتى ألوان التموين".[٢٢] ومن خلال مقارنة بين هذين الطرفين نلمح طابع المراوغة في الشعر السياسي لدى بعض بني أمية وسيطرة تحكيم المصلحة والإقرار بالأمر الواقع، كذلك نلمح المبالغة في الوصف، وتقبيح كل جانب للآخر، وما أشبه الليلة بالبارحة حيث إن ذلك هو نفسه المستغل حاليًا من خلال حوارات المعارضة كذلك اتسمت ببعض الزيف والتضليل في شعر الأمويين كما مالت إلى الأسلوب التقريري، وذلك لسيطرة الجانب الأموي على الحكم؛ فكان لغطرسة بعض الحكام أثرها في توجيه الدفة الإعلامية بشكل أكبر نحوهم.

---

[٢٢] *المرجع السابق نفسه*، ص: ٩.

ومن خلال ما سبق نلمح تطورًا في دلالة مصطلحي (الهجاء والمدح)؛ فقد أصبح للغرضين طابعًا يمثل انتماءات سياسية وقبلية وحزبية يتفنن كل واحد من أنصار أحد الاتجاهات في إعلاء شأن حزبه من خلال المديح واستغلال القدرات اللغوية والحجج المنطقية الزائفة، لكي يصل إلى غرضه وفي الوقت نفسه يصب ألوان الهجاء المختلفة على معارضيه في الجانب الآخر.

وقد صار فن النقائض الشعرية في العصر الأموي نموذجًا يكشف عن تطور الحدث السياسي إذ يصور نمطًا فريدًا للمعارضات والتي تعدت المعارضة الشخصية إلى أوسع من ذلك حيث أذكتها تلك العصبية التي أحيتها الدولة الأموية بين القبائل، وأحيتها الصراعات السياسية، وتحزب كل قبيلة تجاه طرف من أطراف الصراع.

هـ. الشعر السياسي في العصر العباسي

تطورت الظروف السياسية والاجتماعية في العصر العباسي وظهر ذلك واضحًا في الخطاب السياسي الموجه من قبل الشعر والأدب بصفة عامة وهنا يرى البحث ضرورة تقديم عرض موجز للظروف المتغيرة في ذلك العصر والآثار اللغوية المعبرة عن الجانب السياسي في هذا العصر.

في البداية قامت الدولة العباسية على أكتاف زمرة من الفرس، وقد استغل بعض أولئك هذا الأمر للإعلاء من نفوذهم وسيطرتهم على حكام البلاد بعد أن كانوا هم العنصر الأدنى في عصر بني أمية، ولم يغب – في الوقت نفسه – عن العنصر العربي تصاعد وتيرة النفوذ السياسي لتلك الجماعة، فبدأت الصراعات تنشب بين الطرفين، وظهرت – بطبيعة الحال – مصطلحات جديدة على رأسها الشعوبية[٢٣] وهو الذي يمثل في عصرنا الحديث مقابلاً لتفضيل شعب على آخر، فظهرت مصطلحات كثيرة مثل:

[٢٣] الشعوبية نسبة سماعية للشعوب، وأطلق هذا اللفظ على أصحاب هذه الدعوة؛ لانتصارهم للشعوب الأعجمية، كذلك أطلق على هذا الفريق الذي غلبت عليه وطنيته وإقليمته فكره العرب.

السامية، والآرية، والنازية، ومعاداة السامية، والعنصرية، والتمييز العنصري، وهذه كلها مسميات عصرية للمصطلح القديم المعروف بالشعوبية.

كذلك عرفت الدولة العباسية شكلاً أقوى للمعارضة والأحزاب إثر دخول العباسيين كعنصر أو حزب جديد حاكم للساحة السياسية مما زاد من قوة الأحزاب، والشكل السياسي، والتنافس على الحكم، ولكن كان الحزب العباسي والعلوي هما أقوى الأحزاب السياسية في ذلك العصر. وقد بدأ نفوذ الحزب الأموي في التقلص في بلاد المشرق العربي. كما ساعدت الثروة المالية التي ملكتها الدولة العباسية، وكذا سيطرة الحكام على الموارد المادية في تسخير المدح للإعلاء من نفوذهم السياسي، وذلك من خلال إذكاء روح التنافس بين الشعراء في مدح النظام الحاكم، وهجاء المعارضين، وصب المثالب عليهم.

كذلك عرف العصر العباسي صورة من الحرب الخارجية عليه من قبل تلك الأمم التي فتحها الإسلام ورأوا أنه أباد حضارتهم، فهاجموه فيما عُرف بالزندقة وهي تشبه تلك الحملة الغربية الموجهة – حاليًا – على الإسلام والتي تهدف للنيل منه، والتي تقودها أمريكا ومعها بعض الدول الغربية، ووهمهم للإسلام بمسميات معادية بأنه دين الإرهاب والتخلف والجمود!! موافي : "ولعل أهم ما لحق المدح من تطور في العصر العباسي أنه صار لونًا من الأدب السياسي، فأحيا هذا الأدب الذي ازدهر إبان العهد الأموي خلال احتدام الصراع بين المذاهب السياسية المختلفة وكان ذلك استجابة للتطورات الجذرية التي حدثت".[٢٤]

وفي الوقت الذي سخّر فيه العباسيون الشعراء للتأكيد على أحقيتهم في الحكم فنّد العلويون حججهم ومزاعمهم في صورة للمعارضة السياسية أعادت للأذهان مرة أخرى صورة من فن النقائض الذي بزغ نجمه في عصر الأمويين، حيث نلحظ ميل الشعر المناصر للعباسيين إلى الإسراف والغلو ترجمة لما أراد بنو العباس من إسباغ صفة الإمامة عليهم، والتأكيد على أحقيتهم بالملك، ومن ذلك قول أحد الشعراء :

---

[٢٤] محمد موافي، *قراءة في الأدب الإسلامي والأموي*، القاهرة: دار الهاني، ٢٠٠٠م، ص: ٦٨.

أي امرئ بات من هارون في سخط فليس بالصلوات الخمس ينتفع

كما شاع في الخطاب السياسي لبني العباس تأكيدهم فيه على أحقيتهم بالملك مقتبسين من القرآن الكريم أدلة ترجح موقفهم من العلويين، ومن ذلك أن العم يرث دون أبناء الأعمام، وعلى أساس من ذلك يقول أحد مادحيهم :

ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

وفي الوقت نفسه يحاول العلويون تأكيد موقفهم من القرآن الكريم الذي هو مصدر التشريع بأن البنت ترث النصف عن أبيها :

للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

كذلك كان للشعوبية أثرها في الشعر العربي وخاصة لدى أعلام الشعراء من الأعاجم، وعلى رأسهم بشار ابن برد إذ صارت الدولة العباسية تتعايش بين فئات وطوائف لها وزنها في ذلك العصر، لذا فقد حرص الخلفاء على وسيطة القوى داخل الدولة، فإذا أحسوا بخطر الفرس زادوا في الاقتراب من العرب والعكس في نوع من الموازنة بين القوي وهذه السياسة التي كانت موجودة داخل مجتمع واحد نلمحها الآن بين مجتمعات عديدة فيما عُرف بالتكتلات الدولية، أما عن التمييز العنصري وازدراء كل طرف للآخر كما يجب موافي أن ينص عليها؛ مشيرًا إلى أن : " المجتمع المسلم قد أخضع – آنذاك – لنظرة عنصرية يدينها الإسلام وينبذها تمامًا، حيث انعكست هذه النظرة في مظاهر شتى من العلاقات الاجتماعية، ومن أبيات بشار بن برد:

أحين كُسيت – بعد العرى – خزًا وثادمت الكرام على العقار

تفاخر يا ابن راعية وراع بني الأحرار حسبك من خسار[٢٥]

وفي الأبيات تعريض بجهل العرب وتخلفهم – كما يراه هو – وهي – في نظري - نفس السمات المعاصرة التي ينعت بها الغرب الشرق وحضارته العريقة.

[٢٥] *نفس المرجع*، ص: ١٧٧.

ولقد كان تسخير الشعر والشعراء كأداة سياسية ينم عن وعي تام من قبل السياسيين العباسيين بدورها في الإبقاء أو الإطاحة بالحكم، ولهذا حرصوا من خلال الشعراء على تحقيق أغراضهم في السيطرة وفرض حكمهم، ولهذا كان احتكارهم لسلطة المال عاملاً مؤثرًا في شراء أصوات الشعراء والمؤيدين، وهذا بعينه ما يؤكده الحميري حين يقول : "ومن هنا صار على طالب الغنى في هذا العصر أن يطلبه من أحد مصدرين، أو أن يسلك إليه أحد سبيلين أشار إليهما أبو نواس في قوله :

سأبغي الغنى إما جليس خليفة يقوم سواءً أو مخيف سبيل

وهذا يدل دلالة قاطعة على استخدام خلفاء بني العباس للمال بوصفه سلاحًا في مواجهة الآخرين".[٢٦] كذلك كشف الشعر العباسي عن ظاهرة الشعوبية، واشتعال نار العصبية، واتساع آفاتها، وكذلك التنافس بين أبناء البيتين العباسي والعلوي.

و. الخطاب السياسي في الشعر العربي الحديث

لقد كانت الظروف العصيبة التي مر بها العالم العربي في عصره الحديث من احتلال لأراض عربية، وسقوط الخلافة الإسلامية، ومحاولة الاستعمار محو الهوية العربية عاملاً مؤثرًا في إثراء الخطاب السياسي، وبخاصة لدى الشعراء لما لهم من دور مؤثر في حياة الشعوب. وقد استقل الشعراء في هذا الخطاب توظيف التراث التاريخي والاعتماد على الاستعارات من أجل استنفار الهمم، وتوجيه الطاقات تجاه هدف سياسي واحد يهدف إلى تحرير العالم العربي وبعد نجاح العرب في تحرير معظم أراضيهم حرص الشعراء أيضًا على تصوير المخاض العربي وتصوير الحال السياسي.

ونلحظ – بوضوح - في الخطاب السياسي الحديث اعتماده على الاستعارات، وذلك كما في قصيدة أنشودة المطر للشاعر بدر شاكر السياب الذي يصور المخاض العربي بشعره الحافل بعدد من الاستعارات وإسقاط الدلالات على صور من الطبيعة،

---

[٢٦] عبد الواسع الحميري، *شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي*، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (د.ت)، ص: ١٣٥.

فهو يمثل للتحول في الموقف العربي بالتحول في الطبيعة بين فصول السنة. يقول السياب :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنها القمر
فالموت والميلاد والظلام والضياء
فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء

كما نلحظ استخدام لمصطلحي الموت والميلاد لإسقاط الدلالات على طبيعة الصورة السياسية. وعن هذه الصورة يبين فتوح بأنه حيث تتلاقي الأضداد لحظة التحول التي تعترى الطبيعة، وينبثق النقيض من النقيض (الموت، والميلاد، والظلام، والضياء) فإنها كلها عناصر قادرة على الإيحاء بالمخاض العربي المرتقب.[٢٧]

كذلك استولت قضية الصراع العربي الإسرائيلي على الكثير من لغة الخطاب لدى الشعراء المعاصرين والتي صورت هذا الصراع بأبشع الانتهاكات وأساليب الظلم والعدوان الذي يتعرض له أبناء فلسطين الأصليين وأصحاب الحق المسلوب! ومن ذلك قصيدة (صبي من بيروت) للشاعر أحمد عبد المعطى حجازي والتي تصور حلم صبي فلسطيني بعودته واللاجئين إلى (بلده المسلوب فلسطين) مرة ثانية، وكذلك الشاعر أمل دنقل الذي يقول عن شعره زايد بأنه يكاد يمثل نشيدًا متصلاً في التعبير عن الهم العربي الأكبر المتمثل في الصراع العربي الإسرائيلي، والإخفاقات العربية المتوالية في حلبة الصراع، بل إن ديوان الأخير : أقوال جديدة عن حرب البسوس قد وظّف فيه أبطال المعركة لخدمة الصراع العربي الإسرائيلي.[٢٨]

فنلمح لدى أمل دنقل مثلا صورة من رفضه للسلام مع إسرائيل فيسقط هذا الاتجاه السياسي من خلال شخصيات حرب البسوس فيقول :

لا تصالح ولو منحوك الذهب

---

[٢٧] محمد فتوح، *مرجع سابق*، ص: ١٤٨.

[٢٨] علي زايد، *دراسات نقدية في شعرنا الحديث*، القاهرة: دار النصر، ٢٠٠٠م، ص: ١٢.

أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت جوهرتين مكانهما هل ترى
هي أشياء لا تشتري
لا تصالح ولو قيل رأس برأس
كل الرؤوس سواء؟!
أقلب الغريب كقلب أخيك

فنلحظ أن هذا الخطاب موجه إلى الرئيس المصري الراحل (السادات) السادات بعد عودته من القدس، معبرًا فيه عن اتجاه رافض للصلح مع إسرائيل من خلال الاقتباس من أحداث التاريخ وتوظيف هذا التراث. وهكذا كان الشعر مرآة تعكس الأحداث، والأفكار، والاتجاهات السياسية على اختلافها طوال التاريخ العربي، وربما كان توظيف التراث في الخطاب الشعري السياسي الحديث، خوفًا من سياسات القمع التي تواجه بها آراء المعارضين.

ولهذا نرى أننا بحاجة ماسة إلى دراسة لغة الخطاب السياسي في الشعر العربي الحديث دراسة ميدانية من خلال أعمال كبار الشعراء، وعلى رأسهم: محمود سامي البارودي، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي، وكذا محمد إقبال، والسياب، ونازك الملائكة وعبد الرحمن العشماوي، وأمل دنقل ....، ونزار قباني، الذي تعتلي فيه الرؤية السياسية وخاصة في قصيدته "مفكرة عاشق دمشقي" والتي يندد فيها بضعف الحكام العرب، وعجزهم عن اتخاذ القرارات المصيرية من خلال إسقاط الاستغاثة على شخصية خالد بن الوليد بقوله :

يا ابن الوليد ألا سيف نؤجره فكل أسيافنا قد أصبحت خشب

وقصيدة أمل (دنقل البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) حول توقع مأساة ١٩٦٧م.

المصادر

إبراهيم شتا (مترجم)، *لغة السياسة في الإسلام لبرناردلويس*، دار قرطبة، ٢٠٠١م.

ابن تيمية، *السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية*، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣م.

ابن المبرد، *الكامل في الأدب*، بيروت: مكتبة المعارف (د.ت).

ابن هشام، *السيرة النبوية*، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٠.

أبو عبيده معمر بن المثنى، *شرح النقائض*، (تحقيق بيفان) ط ليدن، ١٩٠٥م.

جودة آمين، *عن التاريخ الأدبي في العصر الجاهلي*، القاهرة: دار الثقافة العربية، ٩٩٨م.

الحسين أحمد الزوزني، *شرح المعلقات السبع*، بيروت: دار صادر ١٩٥٨م.

شوقي ضيف، *العصر الجاهلي*، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠م.

عبد الواسع الحميري، *شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي*، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (د.ت).

علي الجندي، *في تاريخ الأدب الجاهلي*، القاهرة: دار غريب، ١٩٩٨م.

علي زايد، *دراسات نقدية في شعرنا الحديث*، القاهرة: دار النصر، ٢٠٠٠م.

فكري عبد المطلب، *الانفجارات غيرت وظيفة بوش*، انظر الموقع على الشبكة العالمية: (www.albayan.co.aa).

محمد خفاجي، *الحياة الأدبية في صدر الإسلام*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م، ط٢.

محمد داود، *اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر*، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢م.

محمد الزليطي، ومنير التريكي (مترجمان)، *تحليل الخطاب لجيليان بروان وجورج يول*، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٩٧م.

محمد فتوح، *الأدب الأموي*، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٩م.

محمد موافي، *قراءة في الأدب الإسلامي والأموي*، القاهرة: دار الهاني، ٢٠٠٠م.

محمود أبو ناجي، *شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام*، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٤م.

منصور المطيري، *مصطلحات الخطاب العربي تجاه الإسلام*، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٢٠٠٢م.

يحيى التبريزي، *شرح المعلقات العشر*، (تحقيق فخر الدين قباوه) بيروت: دار صادر (د.ت).

يحيى الجبوري، *الشعر الجاهلي*، خصائصه وفنونه بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.

يوسف خليف، *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي*، القاهرة: دار المعارف بمصر، ط ١١.